مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

من الأدلة على قُدرته تعالى وعظيم سُلطانه: أنه يُرسلُ الرِّياحَ فتُثيرُ سحاباً، فيُمطِرُ على الأرض الجُرُز - التي لا نباتَ فيها - وهي هامدةٌ يابسةٌ، سوداءُ قحلة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ ﴾ أي: خضراء بعد يُبسِها ومُحُولها. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي: عليمٌ بما في أرجاء الأرض وأقطارِها وأجزائها من الحَبِّ وإنْ صَغُر، لا تخفَى عليه خافيةٌ، فيوصِّل إلى كُلٍّ منه قِسْطَه من الماء، فيُنبته به،

---

(١) الحج: ٦٣- ٦٦.

(٢) الحج: ٥.

كما قال لقمانُ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣)

وقوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ أي: مُلكُه جميع الأشياء، وهو غنيٌّ عمَّا سواه، وكُلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، عبدٌ لَدَيْه.

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: من حيوانٍ وجمادٍ، وزروعٍ وثمارٍ. كما قال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٤) أي: من إحسانه وفَضْله وامتنانه.

﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي: بتسخيره وتسييره. أي: في البحر العَجَاج وتلاطُم الأمواج تجري الفُلْكُ بأهلها بريحٍ طيِّبةٍ، ورِفقٍ وتؤدةٍ، فيحملون فيها ما شاءوا -

(١) لقمان: ١٦.
(٢) الأنعام: ٥٩.
(٣) يونس: ٦١.
(٤) الجاثية: ١٣.

من تجائرَ وبضائعَ ومنافع - من بلدٍ إلى بلدٍ، وقُطرٍ إلى قُطرٍ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، بما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه.

﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [1] أي: لو شاء لأَذِنَ للسماءِ أن تقعَ على الأرض، فهَلَك مَن فيها، ولكن من لُطفه ورحمته وقُدرته يُمسِكُ السماء أن تقع على الأرض إلاَّ بإذنه، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ أي: مع ظُلمهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [2]

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ كقوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [3]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [4]، وقوله: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [5]

---

(١) الحج: ٦٥.
(٢) الرعد: ٦.
(٣) البقرة: ٢٨.
(٤) الجاثية: ٢٦.
(٥) غافر: ١١.

ومعنى الكلام: كيف تجعلون له أنداداً وتعبدون معه غيرَه وهو المستقلُّ بالخَلْقِ والرزق والتصرف ؟! ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يُذْكَرُ، فأوجدكم ﴿ ثُم يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي: جحُود.

ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

إن الدلالةَ على قُدرةِ الله وعظيمِ سُلطانه قائمةٌ للإنسان حيث كان، في نفسه وفي الآفاق من حوله؛ لتكون التبصرة والذِّكرى دائمة للإنسان لا تنفكُّ عنه. يرى في كُلِّ شيءٍ آيةً لربِّه تشهدُ بقُدرته ووحدانيته.

ومع بيانها وشمولها وملازمتها للإنسان تَرَى من الناس ناساً يعمهون ولا يستبصرون ! ولا يستبصرُ بالآيات ويتذكَّرُ بها إلاَّ مَن أناب إلى ربِّه، وسلَّم قلبَه لمعرفته ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً

(١) الحج: ٦٣ – ٦٦.

وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

فالتبصرة والذكرى قائمةٌ في كُلِّ شيء. وما خَلَقَ الله من شيءٍ إلاَّ وفيه مدعاةُ التفكر والتدبُّر ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

ومَن لم يؤمن بذلك فبأيِّ شيءٍ بعده يؤمن ؟! ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٣)

إنَّ ما خاطبنا الله في آياته دافعٌ إلى الإيمان واليقين، داعٍ إلى التدبر وحُسن الاستجابة لما يُوحي به ويدعو إليه.

فوا عجباً حين تكون الآيات في ذات الإنسان وهو بعيد عنها لا يستبصرُ بها، ولا يفيد منها ! ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ هذا الأمر الواقع ألاَ يكون دافعاً للخشية ؟ وهذا الكون الواسع المُعبِّرُ بآياته عن قُدرة خالقه ألاَ يكون مُنبِّهاً للإنسان بما يجب أن يكون عليه من تسبيحٍ بحمد ربِّه، والوفاء بشكره ؟

---

(١) ق: ٦- ٨.
(٢) يونس: ٦.
(٣) الأعراف: ١٨٥.
(٤) الذاريات: ٢١.

آياتٌ وآياتٌ وآياتٌ، كُلُّها عَوْنٌ للإنسانِ على صِدق الاعتقاد. فإذا دُعِي الإنسانُ إلى الإيمان بالبعث رأى في حياة الأرض بعد موتها ما يبعثُ على اليقين بأن الذي أحياها لَمُحْيي الموتى.. إنه على كُلِّ شيءٍ قدير.

وتلك فطرةُ هذا الدين. لا يُخاطبك بالغيبِ إلاَّ وفي المشاهد دليلٌ عليه.

وعندما استبعد مَن استبعد أن يُبْعَثَ، خاطبه الله بما هو قائمٌ في نفسه.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فالكُفرانُ لا يكونُ من قصورِ الدليل والبرهان، ولكن القلوب إذا عَمِيَت، والأهواءَ إذا عُبِدَتْ، والنفوسَ إذا استكبرت، صُرِفَت عن الآيات، ولم تَرَ فيها إلاَّ ما تراه الأنعامُ !

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

(١) مريم: ٦٦، ٦٧.
(٢) البقرة: ٢٨.